شبام من حضارة الماضي إلى تحديات الحاضر

هناء عبدالكريم فضل عبدالله*

الملخص

تعد مدينة شبام حضرموت واحدة من أقدم المدن التاريخية في اليمن والعالم العربي، وتعرف بلقب (مانهاتن الصحراء)؛ بسبب مبانيها الطينية الشاهقة التي تعود للقرن السادس عشر، فقد تميزت بتخطيط معماري فريد يعكس عبقرية الإنسان اليمني في البناء البيئي المستدام. أدرجتها منظمة اليونسكو ضمن التراث العالمي عام 1982م؛ تقديرًا لقيمتها الحضارية، اليوم تواجه شبام تحديات كبيرة، أبرزها: الفيضانات، والإهمال، والنزاعات، والهجرة السكانية ما يهدد بقاءها على الرغم من ذلك تبذل جهود محلية ودولية لحمايتها، أبرزها مشاريع الترميم بدعم من اليونسكو والاتحاد الأوروبي، إن الحفاظ على شبام مسؤولية إنسانية وثقافية؛ لضمان استمرار هذا الإرث للأجيال القادمة.

الكلمات المفتاحية: شبام، حضرموت، التراث العالمي، الطين، العمارة التقليدية، الفيضانات، التحديات، الترميم.

المقدمة:

شبام الواقعة في وادي حضرموت ليست مجرد مدينة تاريخية؛ بل أيقونه معمارية وإنسانية يعود تاريخها إلى أكثر من 1600 عام، وتعد من أول المدن التي اعتمدت على تخطيط عمران راسي، وهو ما جعلها تبرز عالميًّا، وتدرج ضمن قائمة التراث العالمي لليونسكو عام 1982م.

شبام مدينة قديمة تاريخية سميت باسم ملكها شبام أبن الحارث بن حضرموت أبن سبأ الأصغر، عاصرت الأحداث قبل الإسلام وبعد الإسلام فلقد جاء في نقش (32ك)، مجموعة الكهالي أن أسعد تالب قام بحملة على حضرموت، وأنه أغار على مدينة صوران في الكسر[1]، ثم أغار على مينة شبام وأضطر الحضارم إلى الاحتماء بالمدينة التي حوصرت 13 يومًا استسلمت بعده، كانت عاصمة وادي حضرموت أتخذها زياد ابن لبيد البياضي عامل الرسول على حضرموت مقرًا لإقامته منتقلًا بينها وبين تريم[2]، شغلت شبام دورًا بارزًا في تاريخ اليمن الوسيط، وذلك من موقعها الإستراتيجي ووقوعها على طريق تجاري يربط بي سيئون وشبوه، ساعدها في ذلك وسط حضاري متميز ودور اجتماعي سياسي لا يضاهي في العصور الوسطى تميز بالجدة والعمق وبالريادة على مستوى الفكر وتطبيقاته على أرض الواقع في مواجهة قوى ظالمة حاولت تكريس الجبر والسيادة الأرستقراطية على المجتمع، فشبام وقفت شامخة رافعة شعارات الحق والعدل، مناصبة دمشق الأمويين وبغداد العباسيين العداء، ناشرة ألوية العدل الإنساني على ربوع اليمن، مشرعة قيمها وتقاليدها الحضارية الإنسانية لخير كل الناس[3].

سكانها:

يسكن شبام عرب أبناء حضرموت وكِنّدة وحمير، وقليل من العلويين الهاشميين وليس بها جاليات أجنبية[4].

موقع شبام:

تقع شبام في وسط وادي حضرموت وعلى مفترق طرق الوادي وفي منتصفه وفي موقع إستراتيجي قال الهمداني (وشبام مدينة الجميع) أي سوق الوادي جميعًا.

ويقال لها الدمنه والصفراء؛ مما أكسبها ارتفاعًا، وتربة المدينة تدل على أنها بنيت فوق أنقاض مدن قديمة، تقع في خط العرض بين درجتي 15–17 شمال خط الاستواء، وتتميز كسائر أنحاء الوادي بمناخ صحراوي جاف شديد الحرارة صيفًا معتدل بارد شتاء؛ حيث

* أستاذ مشارك مركز البحوث والتطوير التربوي – عدن – اليمن.

ترتفع درجة الحرارة من مايو إلى أغسطس بمعدل 40 درجة مئوية، بينما تنخفض في ديسمبر ويناير إلى 22 درجة مئوية، وتتباين درجة الحرارة بين الليل والنهار، وتسقط عليها أمطار غزيرة غير منتظمة فتنحدر من أعالي الصخور المطلة على الوادي، وهناك إلى الغرب قريبًا من مدينة خشامر[5] أقام الشباميون سدًا عريقًا يسمى (الموزع) يتلقف السيول المنحدرة نحو الغرب ليدفع بها إلى الحقول المرتفعة وراء شبام في الشمال ولهذا السد قيّمة يختاره أصحاب الأراضي الزراعية يتولى الإشراف على توزيع المياه وصيانة السد وترميمه عند اللزوم.

التاريخ:

لا يعرف أحد على وجه التحديد متى قامت هذه المدينة التاريخية التي تعود على وجه التأكيد إلى القرن الرابع الميلادي على الأقل معاصرة لمدينة شبوة عاصمة مملكة حضرموت القديمة وأشار الهمداني[6]. إن هذه المدينة قد قامت بأيدي بعض التجار القادمين من تلك المنطقة المحيطة بشبام الغنية بالآثار الغير المكتشفة منها وجود بعض النقوش في الجبال القريبة للمدينة، وكذلك عثر على بعض القطع الأثرية وتوجد في قرية جوجة[7] التي تزود شبام بالمياه آثار لم يكشف عنها بعد[8]، كل هذا يؤكد قدم هذه المدينة، التي اختير موقعها بعناية تامة لتكون مركزًا تجاريًّا مهمًّا ترد إليها القوافل من مختلف الجهات، كما كانت مركزًا للإدارة الإسلامية وبها أقام عامل هارون الرشيد[9] الجامع الذي لا زال يحمل اسم الخليفة العباسي حتى يومنا هذا، فقد كانت المدينة أكبر مما هي عليه الآن، وقد دمرت عام 1299م ومرة أخرى عام 1544م، وتركت بعد التدمير الأخير بشكلها وحجمها الحالي تقريبًا، كانت شبام قد لعبت دورًا مهمًّا في الحروب بين الإباضيين والأمويين، حيث كانت نقطة تجمع للجند والزاد، ودخلت في طاعة العباسيين سنه 213هـ ليعود إليها الإباضيين ويمكثوا بها حتى 591هـ، وبعدها تعاقبت عليها الدويلات المحلية إلى أن استولى عليها آل كثير في عام 823هـ، ومكثوا بها حتى آلت إلى قبائل يافع في منتصف القرن الثاني عشر الهجري، وظلت العاصمة الداخلية للدولة القطعية حتى انهارت هذه الدويلات الهزيلة بخروج بريطانيا ونيل الاستقلال عام 1967م.

مساحة شبام:

كانت شبام متسعة الرقعة وأكثر مما هي عليه الآن، ففي عام 698هـ، وقع سيل عظيم سمي بالهميم فدمر الأحقال، وأخذ جزءًا كبيرًا من شبام، فقد أخذ منها 3 مساجد وما والاها من الديار، فأخذت السيول جزءًا من شبام وأخذت النخيل، وفي عام 970هـ جاء سيل عظيم خرب شبام كثيرًا[10].

التخطيط العام:

إن العناصر الرئيسية التي تؤدي دورًا رئيسيًّا في تخطيط أي مدينة أو قرية من مدننا العربية هي: الموقع –نظام الشوارع– نمط وتوزيع قطع الأراضي الخاصة بالبناء –ترتيب وتنظيم المباني والعلاقة فيما بينها، إن هذه العناصر الأربعة تترابط وتتداخل فيما بينها مكونة الملامح الرئيسية لتخطيط أي مدينة، وتعكس الترابط القوي بين كافة الوحدات التخطيطية ويظهر الانسجام والتوافق الكلي الموجود فيها.

فالموقع الإستراتيجي المهم لمدينة شبام تظهر لنا بجلاء كيف استطاعت هذه العناصر الأربعة أن تنسجم وتتوافق فيما بينها مكونة تخطيط المدينة العام القائم في إطارة الضيق على أساس كتل صغيرة من المنازل العالية (وحدات سكنية) متلاصقة بعضها مع بعض استجابة لمتطلبات اجتماعية وأمنية وهذا ما يفسر لنا أيضًا وجود ممرات معلقة تربط بين المنازل المجاورة في أدوارها العليا، وتساعد على الانتقال من منزل إلى آخر من دون الخروج إلى الشارع والتعرض

للرؤيا من الخارج.

ولابد أن هذا كان من دواعي زيادة الاطمئنان في حالات اضطراب الأمن في أثناء الحروب القبلية القديمة، وعندما كان حجاب المرأة على أشده فأنها كانت تستطيع أن تزور الجيران الملاصقين، وهم في الغالب من الأقارب دون اللجوء إلى الشارع، وإضافة إلى أن هذا التلاصق بين المنازل يساعد على انتشار الظلال، ومن تم يعمل على انخفاض درجة الحرارة داخل المنازل وداخل المدينة ككل.

السرحات[11]:

ويوجد بالمدينة من هذه الساحات (السرحات) خمس موزعة توزيعًا جيدًا، وهي ذات مساحات مختلفة ولكنها فسيحة إذا ما قورنت بالمساحة العامة للمدينة، وتؤدي السرحات دورًا مهمًّا في الحياة العامة للمدينة؛ إذ تساعد على التهوية وانتشار الإضاءة وتقدم لساكني الحي المحيط بها مكانًا للأفراح والمناسبات العامة، ولهذا السبب نفسه نجد السرحات قريبة من المساجد أو العكس، وجميعها ملكية عامة لا تُمَس ولا يمكن التصرف فيها، وهذا السرحات هي:

منازل شبام:

تتميز منازل شبام عن غيرها من المنازل في المدن الرئيسية الأخرى في وادي حضرموت بنوافذها وأبوابها وأعمدتها الخشبية المنحوتة بالزخارف، وبالنظر إلى أن لكل بيت في شبام واجهة رئيسية وحيدة تشرف إما على ساحة أو شارع أو نخيل، فقد أعطى الشامبون كل عنايتهم لتلك الواجهة التي تحتوي على النوافذ الكبيرة والأبواب الرئيسية (مدخل المنزل)، التي نقشت عليها الكثير من العناصر الزخرفية؛ مما يدل على ثراء صاحب المنزل وذوقه الجمالي.

أن الزخارف الخشبية لمنازل شبام تستند إلى أصول محلية متوارثة، ومن الصعب مقارنتها مع الزخارف الإسلامية الأخرى إلا في بعض المجالات، ومع ذلك فإن هناك أوجه تشابه من حيث العناصر الهندسية والعناصر النباتية وخاصة الزهرية منها، التي طوعوها على وفق المساحات الصغيرة التي تشغلها النوافذ والأبواب والأعمدة والتيجان[12].

تُعدُ منازل شبام أكثر المنازل في حضرموت ارتفاعًا، فهي مؤلفة من سبعة أو ثمانية طوابق، وتوصف بناطحات السحاب وهي مبنية من اللبن والتبن وقد طليت بالنورة، وتبدو المدينة كتلة واحدة متماسكة، وإذا تطلع المرء إليها من بعيد تبدو له محارًا أبيض اللون ناصعة[13] والأزقة التي تفصل المنازل أخاديد يغمرها الظلام، وكان لضيق المساحة الأرضية وللموقع الإستراتيجي وللمركز التجاري أثر في تزاحم المنازل وارتفاعها، وتضم شبام نحو خمسمائة منزل تبدو وكأنها منزل واحد وعلى مستوى ارتفاع واحد، وارتفاع البناء أكبر من أتساعه، وتزخرف الجدران والسقوف بالنقوش ومنازل شبام صممت بطريقة هندسية مناسبة لضيق الرقعة، فليست هناك دهاليز ولا أحواش ولا غرف استقبال كبيرة.

من معالم المدينة:

حصن شبام من أجمل الحصون في شبام، وهو حصن قديم كان مقرًا للحكم للدول المتعاقبة على شبام، فقد كان مقرًا للحكام وقد اتخذه ابن مهدي عام 617هـ ووسعه وبنى فيه مقرًا له عام 618هـ وحفر خندقًا أحاط بالحصن من جميع نواحيه، وقد شهد الحصن دويلات تعاقبت عليه، وشهد تجديدات وإصلاحات، وقد حفر بير في الحصن في عام 836هـ علي بن عمر الكثيري، وآخر إصلاحات في الحصن كانت أيام السلطة القعيطية في حدود عام 1327هـ[14].

مساجد شبام:

يوجد بشبام خمسة مساجد قائمة داخل السور وعدد آخر خارجة، وتوزيع المساجد الداخلية مرتبط بتوزيع السرحات، وأهم هذه المساجد هو الجامع الذي بني في

العهد العباسي، والذي يحمل اسم الرشيد نسبة إلى هارون الرشيد، وهو لا يختلف في تخطيطه عن مساجد زادي حضرموت من حيث تقسيمة إلى جزئيين رئيسيين، هما:

الضاحي: هو الجزء المكشوف وتقام فيه الصلاة في الصيف، والمحراب: أو الجزء المسقوف الذي يقام فيه الصلاة في الشتاء في النهار عند حرارة الشمس بجانبه أحواض مفتوحة (جوك) للوضوء وغسل الأرجل، وأخرى مغلقة (جوابي) للاغتسال، وهذه تقام تحتها مواقد لتدفئة بالمياه، يوجد إلى جانب القبلة منبر، وكان بجامع الرشيد منبر خشبي قديم عليه كتابات يعتقد أنها بالخط الكوفي.

السمات المميزة لإعادة تعمير المدينة:

عرفت مدينة شبام في بداية هذا القرن العشرين تطورًا مهمًّا؛ إذ أُعيد بناءها، فأدى ذلك إلى تغيير كبير في مظهرها وهذا يعود إلى تقليد ساري في شبام حتى اللحظة؛ حيث يُعاد بناء بيوتها بالطريقة نفسها وفي المكان نفسه الذي كانت فيه.

وفي العشرين سنة الأخيرة فإن تطور المنطقة ببناء الطريق الذي ربط شبام بالقطنة وتريم وسيئون وتعميم فإدخال الماء والكهرباء قد ساعد كثيرًا على التطور السريع في ضاحية السحيل، في حين بقية المدينة القديمة محاصرة داخل أسوارها لا تعطي أية إمكانية للتطور والنمو، وفي الوقت الحالي فإن شبام تُعدُ عاصمة لأحد المراكز الإدارية في حضرموت.

والمدينة لا يمكن الدخول إليها سوى من مدخل واحد يسمى السدة، ويقع في مواجهة (البطحة)، وموقعة ليس مركزيًّا ولا يتوسط السور تمامًا، وتحاط السدة بحصنين يلعبان دورًا مهمًّا في الدفاع عن المدينة، وللسدة بابان أحدهما كبير ويستعمل لدخول القوافل سابقًا والسيارات حاليًّا، والأخر كان يستعمل عادة لمرور النساء نتيجة للعادات والتقاليد التي كانت سائدة في هذه المنطقة.

وعدد الجوامع في شبام حُصرت في مسح شامل بلغ حوالي 132 مسجد منها جامع الحسين ابن سلامة، وهناك جوامع في تريم وشبام، وفي 536هـ حفر راشد بن أحمد الدغار بير الجامع، وفي 719هـ جدد عمارة الناحية النجدية بالجامع، وفي عام 747هـ عُمِرَ مسجد الجامع الجناحين الجنوبي والشرقي.

سور شبام:

سور شبام سور قديم جدًّا وكلما تعرض للتلف جُدّد، وللمدينة مدخل واحد فقط وعلى المدينة سده أي بوابة تقفل ليلًا وهي من الخشب الأحمر القوي وكان آخر ترميم لها في عام 1327هـ.

لذلك فان المدينة وهي أشبه ما تكون بجزيرة تقع على قطعة أرض عريضة في وسط الوادي قد تكونت من منازل عالية متراصة حتى يسهل الدفاع عنها، إن تأثير ديكور النوعين المختلفين للنوافذ واضح تمامًا، فالنوافذ الكبيرة بالشعرية (الخيش) تشغل حيزًا صغيرًا في الجدار الذي لوحته الشمس، أما النوافذ الصغيرة فقد جعلت هناك لتكون بمتابه كوى لأطلاق النار، وهي بذلك تصبح متباينة في شكلها مع سابقتها، وهي إحدى الحالات التي تصمم فيها الأشياء بقصد الجمال فقط؛ لأن الاختلاف في مظهر هذه الجداران لن يبرز جمالها إلا إذا بنيت بتخطيط مسبق.

العمارة الفريدة (ناطحات طينية):

كان الطين منذ فجر التاريخ واستقرار الانسان في مجتمعات مستقرة من أهم مواد البناء الأساسية، وتُعدُّ العمارة الطينية امتدادًا للأرض حيث أكدت ارتباط الإنسان بأرضه وشكلت الجذور التقنية والثقافية للعمارة التقليدية، فإن استخدم الطين كمادة بناء على نطاق واسع لم تقتصر استخداماته على منطقة دون أخرى؛ بل امتدت إلى مختلف المناطق الجغرافية والمناخية ذات بيئة تتوافر بها مادة الطين، وتركت

الحضارات المختلفة نماذج توضح فاعلية هذه المادة في الاستخدام، تُعدُّ تجربة اليمن في مجال البناء الطيني عريقة وتقنيات العمارة الطينية المختلفة والمنتشرة في مناطق اليمن المختلفة معروفة تاريخيًّا ومنها مدن وادي حضرموت وتحديدًا مدينة شبام، التي مازال البناء بالطين مستمرًا فيها ولكن ببطء شديد مع دخول بعض المواد الحديثة في العناصر الإنشائية المكونة للمبنى، كما استخدم الملاط الطيني إلا أن الاتجاه نحو النمط العمراني الحديث والغريب عن البيئة المحلية بدأ يظهر في وادي حضرموت تحت مسوغات التحضر والتطور[15]، ترتفع بين 5 إلى 11 طابقًا، بعضها يصل إلى أكثر من 30 مترًا وجدرانها سميكة في القاعدة وتصبح أرق في الأعلى، وتستخدم الطين والقش والماء لصنع الطوب الذي يجفف تحت الشمس، صُممت للوقاية من الهجمات البدوية؛ فالأرضيات السفلية كانت تستخدم لحفظ الحبوب والمواشي، أما العليا فكانت للمعيشة والتواصل.

العمارة تعكس الحكم المحلي وهي أيضًا استجابة للظروف المناخية: لتحقيق التضليل، وطين ذو قدرة عالية على العزل الحراري ومعالجات جيرية على السطوح؛ لمنع تسرب المياه، وكان التخطيط العام للمنزل يتكون من:

الدور الأرضي:

وبه مدخل البيت الرئيسي، وهو عادة ما يكون منفصلًا عن المداخل الأخرى، ويوصل مباشرة إلى السلم الرئيسي الذي يصل الأدوار العليا والسفلى ببعضها، والذي يرتكز على عمود طيني عريض ممتد على طول المنزل ويسمى (العروس)، ويحتوي هذا الدور على أماكن تسمى الواحدة منها: (الضيقة) لها مدخل مستقل عن مدخل المنزل الرئيسي، وكثيرًا ما تستخدم الضيقة كدكان، ويمتاز هذا الدور بسقفه العالي، وله أماكن أخرى تسمى: (المياسم) وتستعمل للتخزين وتوجد بهذا الدور فتحات صغيرة فقط للتهوية والإضاءة البسيطة (عكر).

الدور الثاني:

وهو عبارة عن دور خاص بالمخازن (المياسم) الخاصة بتخزين[16] المؤن اليومية المختلفة وأدوات العمل، بالإضافة إلى حظيرة (سطحة) للحيوانات المنزلية، وكان أهالي شبام يشتهرون بتخزين مؤن ما لا يقل عن عام كامل في البيت خشية وقوع أي حروب داخلية.

الأدوار العليا الأخرى:

أما الدور الثاني أو الثالث غرف (محاضر) بأربعة أعمدة (أسهم) تستعمل لاستقبال الضيوف من الرجال، وبجوارها تقع غرفة صغيرة تستعمل لنوم الضيوف أحيانًا أو كمكتب لصاحب البيت، ويوجد في هذا الدور حمام (طهارة) للاستعمال اليومي وأيضًا تستخدم في غسيل الموتى.

أما الدور الرابع فانه خاص بالنساء، ويوجد به غرفة كبيرة بأربعة أعمدة، أيضًا تستعمل لاستقبال الضيوف من النساء أو في المناسبات وتسمى (المراوح)، ويكون المطبخ دائمًا في هذا الدور وأحيانًا توجد غرفة خاصة بالشغالة إن وجدت ضمن العائلة، وغرفة صغيرة شبه صماء تسمى (المغلولة) تستعمل في أثناء فترة الشتاء، كما تستعمل للنفساء.

أما الدور الخامس والسادس إذا وجد فيخصص عادة للأبناء المتزوجين، ويسمى الدور الأخير ما بين الطيارم وتخلله سطوح (طيارم)، ويستفاد من هذه السطوح للنوم في الصيف، ويلاحظ أن موقع الحمام في جميع هذه الأدوار واحد حول المنفذ الرئيسي الخاص بالمجاري.

التحديات المعاصرة التي تواجه مدينة شبام:

أولًا: المتغيرات التي طرأت على العمارة الطينية:

ظلت موارد البيئة المحلية المصدر الوحيد الأساس للعمارة في وادي حضرموت، وثورات معالم البناء تلك الخبرات المعمارية عبر أجيال من البنائين عن طريق

التجربة، وعملوا على إيجاد الحلول التقنية والتصميمية لما يستجد من متغيرات باستخدام مواد البناء المحلية، التي أنتجت عددًا من المدن المتميزة إلى منتصف القرن الماضي، عندما ظهرت متغيرات اجتماعية وبيئية ومناخية، أدت تدريجيًّا إلى العزوف عن البناء التقليدي والبدء في البحث عن بدائل للمواد التقليدية المتوفرة في البيئة الطبيعية.

1-المتغيرات الاجتماعية:

ظهرت المتغيرات الاجتماعية نتيجة لمتطلبات الحياة الحديثة، التي ساد فيها استعمال الاكتشافات التكنولوجية في نواحي الحياة المختلفة بحثًا عن رفاهة العيش، الأمر الذي أدى على البحث عن بدائل للمواد التقليدية، يمكن من خلالها اختصار المدة الزمنية اللازمة؛ لتجهيز المبنى وتوافر غرف مريحة ذات مساحات واسعة وحمامات مجهزة بطريقة عصرية.

3-المتغيرات البيئية والمناخية:

شهد وادي حضرموت في العشرين عامًا الماضية تصاعدًا في المتغيرات البيئية والمناخية، التي أدت إلى توسع في البناء، وجاء هذا التوسع على حساب المساحات الزراعية الأمر الذي أدى إلى دخول أنماط بناء جديدة إلى الوادي ومنها البناء بالطوب الخرساني والخرسانة المسلحة[17].

كما أن التغيرات المناخية تسببت في حدوث أمطار غزيرة وسيول جارفة أدت إلى إحداث دمارًا كبيرًا للممتلكات في أكثر منطقة من مناطق وادي حضرموت، وساعد على زيادة حجم الدمار عوامل عديدة، منها:

1- ارتفاع هضبة حضرموت (ترتفع 700 متر عن سطح البحر) وتميز طوبوغرافيتها بتعدد المساقط المائية وشده انحدارها، الأمر الذي يؤدي إلى زيادة سرعة مياه سيول الأمطار.

2-تكاثر نمو أشجار المسكيت (السيسبان) في الأودية الرئيسة والأماكن الطبيعية لمرور السيول، التي شكلت حاجزًا منيعًا لصد مياه السيول وارتدادها، الأمر الذي أدى إلى تجمع المياه وتدفقها نحو المناطق السكنية.

3-تضيق عرض مجرى تصريف السيول الطبيعي بسبب بناء الطرقات، والسماح للمواطنين ببناء مساكن على حافتي مجرى الوادي.

4-عدم العناية بالمساكن والمباني والمنشآت الطينية وإهمالها وتجاهل ترميمها، الأمر الذي أدى إلى تدهور بنيتها الأساسية.

مدينة شبام الواقعة في وادي حضرموت شرقي اليمن، تعد من أقدم المدن الطينية في العالم ومثالًا فريدًا للعمارة الرأسية في العصور الإسلامية، أُدرجت ضمن قائمة التراث العالمي اليونسكو عام 1982م، ثم وضعت على قائمة التراث المهدد بالخطر 2015م، وعلى الرغم من مكانتها التاريخية إلا أن المدينة تواجه تحديات كبيرة تهدد استمرار وجودها ومعمارها الفريد من أهم هذه التحديات:

البناء الحديث في شبام:

التحول نحو العمران الحديث أوجد نظرة دونية تجاه العمارة الطينية عند الأجيال الجديدة فبدأ زحف العمران الحديث يظهر في وادي حضرموت وفي ضواحي المدن تحث مسوغات التحضر والتطور، وبحثًا عن المباني القوية، الأمر الذي يؤدي إلى تعميق العزلة بين الإنسان وبيئته ويضعف الانتماء البيئي والاعتزاز بالبيئة المحلية.

1- النزاع المسلح وتدهور البنية التحتية:

منذ اندلاع الحرب في اليمن 2015م، (1437هـ) عانت شبام من أضرار مادية ومعنوية جسيمة.

2- العوامل البيئية:

انتشار نباتات، مثل: السيسبانيا تسبب في تصدعات للمباني وتغيير مجرى السيول، فهذه النباتات تؤثر في الأراضي الزراعية وتعزز الانجراف الطيني.

3- التغير المناخي:

إن التغيير المناخي هدد البنية الطينية للمباني، ففي أكتوبر 2008م سببت الأمطار الغزيرة فيضانًا دمر أجزاء من شبام وأضعف أساسات العديد من المباني الطينية[18].

فقد شهدت مدينة شبام فيضانات مدمرة في 2020 و2021م ألحقت أضرارًا بعشرات المنازل وتقلبات شديدة في درجات الحرارة، وتأثيرات الرطوبة والرذاذ، فكل ذلك أسهم في تآكل الطين وتصدع الأسطح والجدران.

4- الإهمال والصراعات:

أن الأوضاع السياسية في اليمن أثرت على جهود الصيانة والترميم؛ فمعظم عمليات الترميم متوقفة بسبب شح التمويل، إضافة إلى ضعف الكوادر الهندسية المدربة على تقنيات البناء الطيني.

5- الهجرة ونقض الموارد:

تقلص عدد السكان والهجرات الخارجية بسبب قله الخدمات الأساسية.

6- الضغط السياحي:

أسهم ضعف السياحة في تآكل المعمار؛ إذ لم يتم تنظيمها.

مستقبل شبام بين الأمل والخطر:

1- أهمية إدراجها ضمن التراث العالمي يعطي دفعة مادية ومعنوية للحفاظ عليها.

2- دعوى للمجتمع الدولي لدعم المدينة كرمز للتراث الإنساني المشترك.

3- إمكانية تطوير السياحة الثقافية (بعد الاستقرار) لتكون مصدر دخل يعزز من الحفاظ عليها.

طرق تطوير ومعالجات المناطق التراثية في مدن وادي حضرموت (مدينة شبام القديمة):

شبام من المدن التاريخية التي تحتاج إلى ما يأتي:

1- إحاطة منطقة شبام القديمة من الخارج بمحيط زراعي مع زراعة بعض المسطحات حول المدينة التاريخية.

2-تحتاج إلى العلاج المروري والبيئي حيث حركة المرور وتأثيرها السلبي على المباني، وذلك بإبعاد طرق المرور الإقليمي[19].

3- يفضل عمل سور حجري سميك وقوي حولها للحماية من المؤثرات البيئية، مثل: السيول التي أثرت وتؤثر على الحوائط السائدة للسور الخارجي.

الخاتمة:

مدينة شبام ليست مجرد معلم تاريخي عابر بل هي شاهد على إرث حضاري فريد يعكس قدرة الإنسان اليمني على التكيف والإبداع في بيئة قاسية، لقد مثلت شبام نموذجًا استثنائيًا في العمارة الطينية والتنظيم العمراني، ما أكسبها مكانة مرموقة في سجل التراث الإنساني العالمي.

ومع ذلك فإن ما تواجهه المدينة اليوم من تحديات بيئية وعمرانية وتنموية يهدد استمرارية هذا الإرث الثمين، ويضعنا أمام مسؤولية كبيرة تتطلب تضافر الجهود المحلية والدولية من أجل الحفاظ على أصالة شبام وصون هويتها التاريخية.

إن الاهتمام بشبام ليس مجرد حفاظ على الماضي؛ بل هو استثمار في المستقبل يعيد للتراث مكانته في قلب التنمية المستدامة، ويجعل من التاريخ عنصرًا فاعلًا في بناء الحاضر وصياغة الغد.

النتائج التوصيات:

أولًا: النتائج:

1-شبام هي مدينة فريدة تحمل إرثًا حضريًا ومعماريًا يعود لقرون من التكيف مع البيئة، تعاني اليوم من ضغوط متعددة مناخية، وصراعات، وهجرة الأيدي العاملة، ومحدودية الموارد.

2-مدينة شبام ليست مجرد مبانٍ شاهقة من الطين؛ بل هي حكاية من عبق التاريخ وتعبير حي عن قدرة الإنسان على بناء حضارة متكاملة في أحلك الظروف، فالحفاظ على هذه المدينة هو مسؤولية

إنسانية وثقافية تتجاوز حدود اليمن؛ لأنها تمثل إرثًا عالميًّا فريدًا.

3- هناك جهود دولية ومحلية لإعادة تأهيلها ومواكبتها لعصر جديد يحافظ على أصالتها ولكنها غير كافية.

- رغم تسجيلها في قائمة التراث العالمي، إلا أن غياب الوعي المحلي والدعم المجتمعي الكافي والجهود الدولية لا تزال محدودة الأثر، وغير مستدامة بطرق كافية.

ثانيًا: التوصيات:

1- تعزيز الدعم الحكومي والدولي؛ لترميم المدينة باستخدام تقنيات حديثة تحترم الهوية الطينية الأصيلة.

2- إعداد برامج تدريبية لأبناء شبام في مجالات الترميم التقليدي وإدارة المواقع التاريخية.

3- إنشاء مركز بحثي متخصص في العمارة الطينية والتراث الحضري في وادي حضرموت، تكون شبام محورًا له.

4- تعزيز الوعي المجتمعي والسياحي، بتنظيم فعاليات ثقافية ومؤتمرات دولية تبرز أهمية المدينة بوصفها رمزًا حضاريًّا.

5- تفعيل دور المنظمات الدولية، مثل: اليونسكو في تقديم الدعم الفني والتقني بطريقة مستدامة لا يقتصر على الاستجابة الطارئة.

الهوامش:

(1) مدينة صوران تقع شمال مدينة حماه بمسافة حوالي 18 كم، والاسم صوران: هو تحريف بيزنطي للاسم الأصلي (شوران) ومعناه (قبة شيخ الأربعين) نسبة إلى كنيسة الأربعين الموجودة فيها وتعود أصول المدينة إلى العصر الروماني وتضم آثار مهمة، مثل: قناة العاشق المائية وكنيسة صوران الأثرية، تقع صوران ضمن منطقة حماه إداريًا وتضم عدة قرى تابعة لها.

(2) الصبان، محمد عبد القادر: مدينة شبام في سطور، المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف، حضرموت أغسطس 1985م، ص (1).

(3) شكري، محمد سعيد: تأسيس مدينة شبام وتاريخها السياسي في العصور الوسطى، مجلة سبأ، العدد (8)، عدن، ديسمبر 1999م، ص (127)

(4) الصبان، عبد القادر محمد: تعريفات تاريخية عن وادي حضرموت، المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف، حضرموت 1979م، ص (20).

(5) مدينة خشامر: هي قرية تقع في عزلة القطن بمديرية القطن التابعة لمحافظة حضرموت، بلغ عدد سكانها حسب تعداد اليمن 2004م حوالي (806) نسمة، وقد زاد إلى نحو (1083) نسمة في تقديرات عام 2014م، وهي معروفة بتاريخها العريق.

(6) الهمداني، أبو محمد الحسن: صفة جزيرة العرب، دار اليمامة، الرياض 1974م، ص (175).

(7) قرية جوجة هي قرية أثرية تقع في مدينة شبام/ عثر فيها على بعض القطع الأثرية التي تدل على تاريخ عريق للمنطقة، وكانت تزود شبام بالمياه؛ مما يجعلها ذات أهمية إستراتيجية وبيئية في دعم حياة سكان شبام.

(8) تقرير الأمم المتحدة، المجلس الاقتصادي والاجتماعي: شبام (دراسة أولية لمدينة شبام التاريخية وادي حضرموت (المحافظة الخامسة)، إعداد لودبير، بافقيه، باهارون، اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا، الاجتماع الإقليمي لتمويل وإدارة المستوطنات البشرية برعاية مركز الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية ولجنة الأمم المتحدة الاقتصادية لغربي آسيا وحكومة الإمارات العربية المتحدة، العين نوفمبر 1979م، ص (13).

(9) عامل هارون الرشيد في شبام هو زياد بن لبيد البياضي اشتهر بأنه أقام الجامع الكبير في وسط شبام المعروف بجامع هارون الرشيد.

(10) الصبان، عبد القادر محمد: تعريفات تاريخية عن وادي حضرموت، مرجع سبق ذكره، ص (21).

(11) السرحات في شبام، هي: مساحات عامة داخل المدية التاريخية تستخدم كمناطق تجمع وأماكن للتواصل الاجتماعي، وتوزعت هذه الساحات جيدًا في المدينة، وهي مساحات مفتوحة يرتادها الناس للقاءات والأنشطة الاجتماعية.

أ- سرحة الخوقة (الحصن)، هي: واحدة من الساحات أو الأمكنة المعروفة داخل شبام تقع بالقرب من مسجد الخوقة، وهو مسجد قديم جدًا في شبام.

ب- سرحة معروف، هي: إحدى الساحات التاريخية في شبام؛ حيث ترتبط بعادات وتقاليد محلية، مثل: جولات المفلح (المسحراتي) في رمضان الذي يبدا جولته من سرحة الحصن مرورًا بالساحات المختلفة ومنها معروف.

ج- سرحة باذيب: تمثل جزء من التراث العمراني والاجتماعي لشبام.

د- سرحة الجامع، هي: تمثل المكان المفتوح المجاور للمسجد.

هـ- سرحة براهم، هي: إحدى الساحات التاريخية والأثرية في مدينة شبام، وهي جزء من الموقع المسجل ضمن قائمة التراث العالمي لليونسكو، وتظهر مهارة السكان القدماء في تصميم وتشيد المباني العالية من الطوب الطيني.

(12) بلعفير، محمد صالح: الزخارف الخشبية في منازل مدينة شبام، مجلة حضرموت الثقافية، العدد (3)، السنة الأولى، مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، مارس 2017م، ص (34).

(13) فرايا ستارك: مشاهد من حضرموت ترجمة د/ أحمد زين عيدروس، علي محمد باحشوان، دار جامعة عدن للطباعة، 2009م، ص (43).

(14) الصبان: تعريفات تاريخية، مرجع سبق ذكره، ص (21).

(15) شمشير، فيصل حنشور، أحمد، مميزات التصميم المعماري وتكنولوجيا البناء لمدينة شبام –الموروث والمعاصر–، مجلة تقنية البناء، العدد (11)، وزارة الشئون البلدية والقروية، مايو 2007م، ص (48).

(16) شبام اليمن أقدم مدينة لناطحات السحاب، مجلة أسفار عن اليونسكو للتراث، العدد (1511)، 12 نوفمبر 2012م، assfar.org;www.assfar.org/home/art2826.html.

(17) حنشور، أحمد إبراهيم: العمارة الطينية بين الواقع والطموح، مجلة العمارة الحضرمية العدد (18)، أكتوبر– ديسمبر 2020م، ص(5–6).

(18) المركز الدولي للتراث العالمي – يونسكو– وصف الموقع والمعايير المعمارية والبيئية.

(19) Bazara T.G, AL-Sagaf M.A and AL-Sagaf O.A ; ENVIRONMENTAL STUDY FOR DEVEL OPER HISTORICAL ZONES IN TOWNS OF HRAMOUT VALLEY, Journal of Engineering Sciences, Assiut University, VOL.37,NO.3.PP.763-.MAY 2009.

المراجع:

1- بلعفير، محمد صالح: الزخارف الخشبية في منازل مدينة شبام، مجلة حضرموت الثقافية، العدد (3)، السنة الأولى، مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، مارس 2017م.

2- حنشور، حمد إبراهيم: العمارة الطينية بين الواقع والطموح، مجلة العمارة الحضرمية العدد (18) أكتوبر– ديسمبر 2020م.

3- شكري، محمد سعيد: تأسيس مدينة شبام وتاريخها السياسي في العصور الوسطى، مجلة سبأ، العدد (8)، عدن ديسمبر 1999م.

4- شمشير، فيصل، حنشور، أحمد: مميزات التصميم المعماري وتكنولوجيا البناء لمدينة شبام –الموروث والمعاصر، مجلة تقنية البناء، العدد (11)، وزارة الشئون البلدية والقروية، مايو 2007م

5- الصبان، عبد القادر محمد: تعريفات تاريخية عن وادي حضرموت، المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف، حضرموت 1979م.
6- الصبان، محمد عبد القادر: مدينة شبام في سطور، المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف، حضرموت أغسطس 1985م.
7- فرايا ستارك: مشاهد من حضرموت ترجمة حمد زين عيدروس، علي محمد باحشوان، دار جامعة عدن للطباعة 2009م.

التقارير:

8-تقرير الأمم المتحدة، المجلس الاقتصادي والاجتماعي: شبام (دراسة أولية لمدينة شبام التاريخية وادي حضرموت (المحافظة الخامسة)، إعداد لودبير، بافقيه، باهارون، اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا، الاجتماع الإقليمي لتمويل وإدارة المستوطنات البشرية برعاية مركز الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية ولجنة الأمم المتحدة الاقتصادية لغربي آسيا وحكومة الإمارات العربية المتحدة، ص (13)، العين نوفمبر 1979م.
9-شبام اليمن أقدم مدينة لناطحات السحاب، مجلة أسفار عن اليونسكو للتراث، العدد (1511)، 12 نوفمبر 2012م .assfar.org;www.assfar.org/home/art2826.html
10- المركز الدولي للتراث العالمي _ يونسكو وصف الموقع والمعايير المعمارية والبيئية.
11 -Bazara T.G, AL-Sagaf M.A and AL-Sagaf O.A ; ENVIRONMENTAL STUDY FOR DEVEL OPER HISTORICAL ZONES IN TOWNS OF HRAMOUT VALLEY, Journal of Engineering Sciences, Assiut University, VOL.37,NO.3.PP.763-.MAY 2009.

الملاحق:

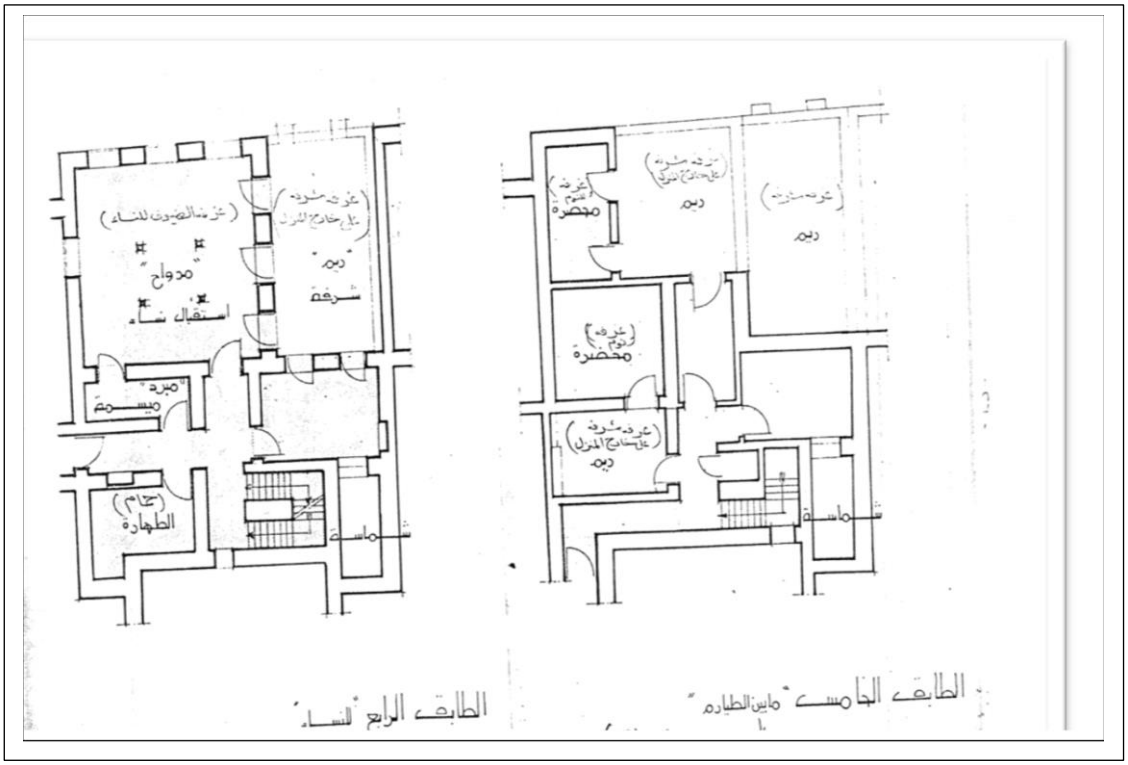
الطابق الخامس "مابين الطارم"
الطابق الرابع "للنساء"

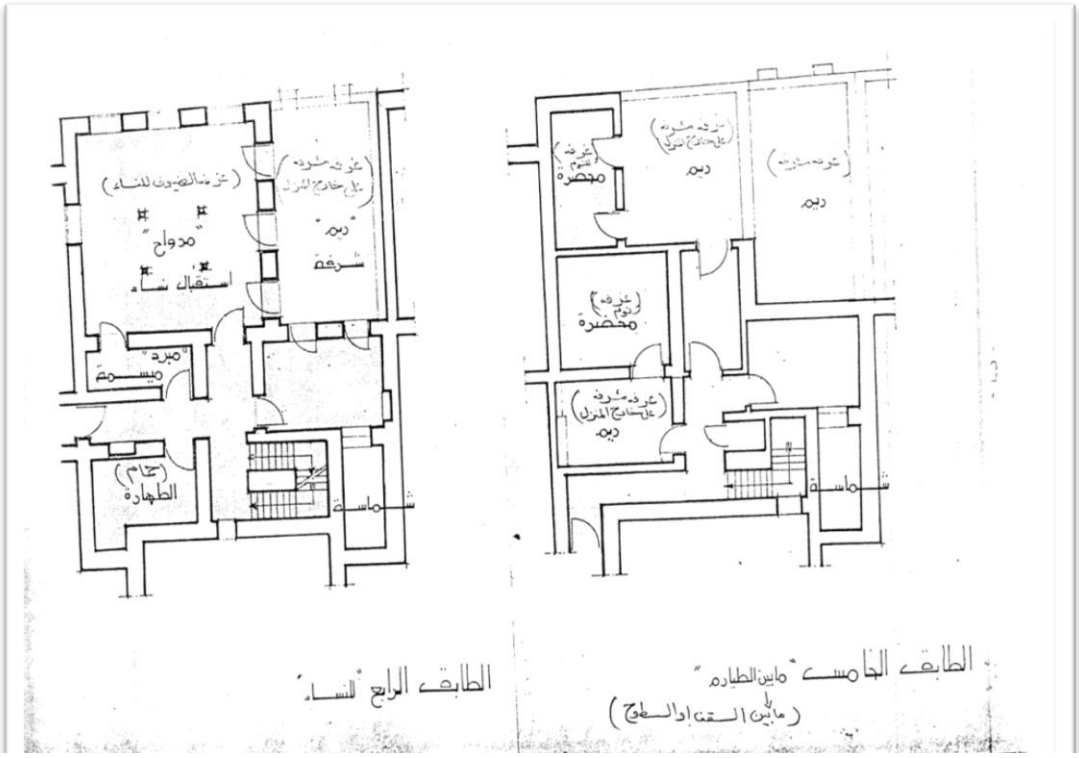
الطابق الخامس "مابين الطارم"
(مابين السقف والسطح)
الطابق الرابع "للنساء"

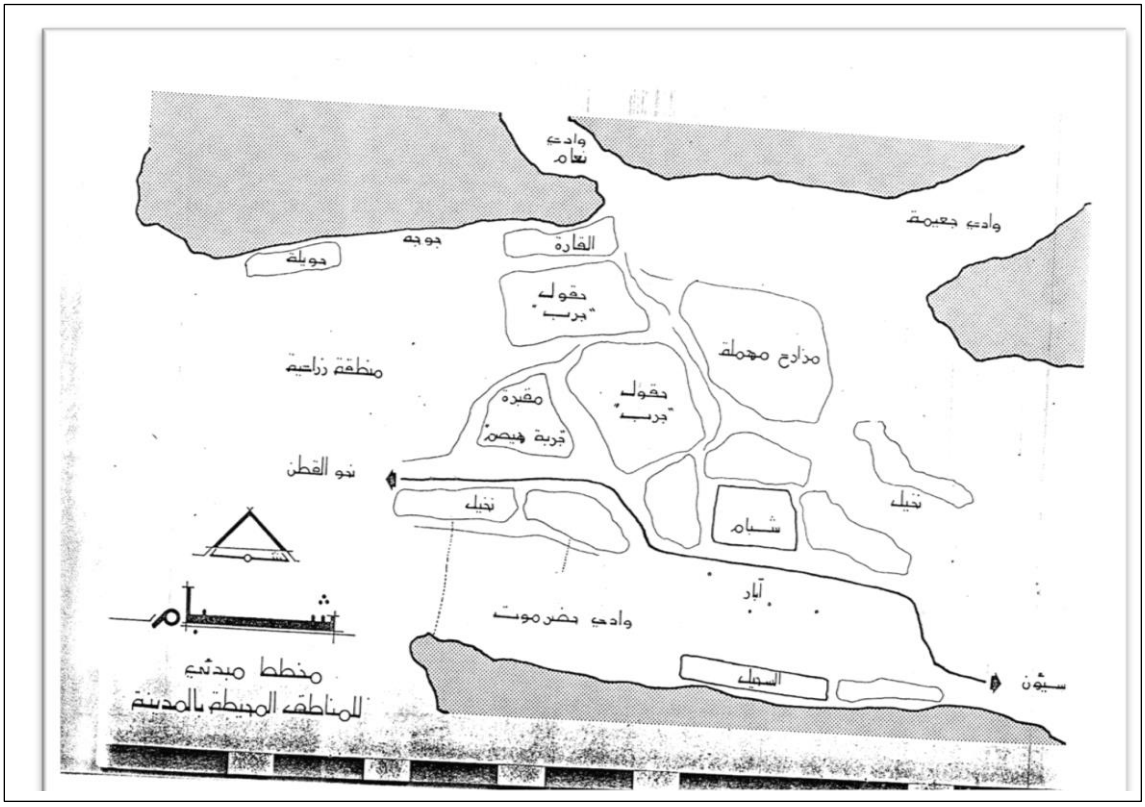
وادي ضاه
وادي جعيمة
جوجه
حويلة
القارة
حقول عرب
مزارع مهملة
منطقة زراعية
مقبره
قرية قيصر
حقول عرب
نحو القطن
نخيل
نخيل
شبام
آبار
وادي حضرموت
السيل
سيئون
شبام
مخطط مبدئي للمناطق المحيطة بالمدينة

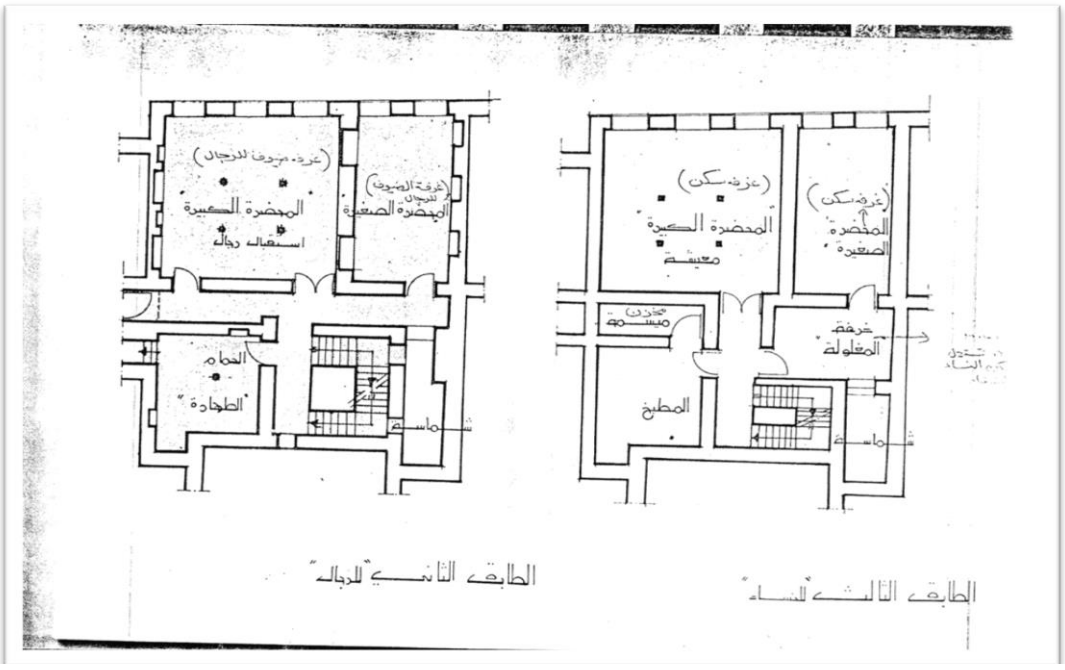
(غرفة مزوق للرجال)
المضيفة الكبيرة
استقبال رجال
(غرفة الضيوف للرجال)
المضيفة الصغيرة
الحمام
الطهادة
سلم
(غرفة سكن)
المضيفة الكبيرة
معيشة
(غرفة سكن)
المضيفة الصغيرة
مخزن مؤسسة
غرفة المغلولة
المطبخ
سلم
الطابق الثاني للرجال
الطابق الثالث للنساء

Shibam from the Past Civilization to the Present Challenges

Hanaa Abdulkarim Fadl Abdullah

Abstract

Shibam Hadhramout is one of Yemen's oldest historical cities and is also renowned in the Arab world. It is often called the "Manhattan of the Desert" because of its tall mud-brick buildings from the 16th century. Its distinctive architecture shows the creativity of the Yemeni people in sustainable construction. UNESCO designated it a World Heritage Site in 1982 to honor its cultural significance. Today, Shibam faces significant challenges, most notably floods, neglect, conflict, and population migration, threatening its survival. Despite this, local and international efforts are underway to protect it, most notably restoration projects supported by UNESCO and the European Union. Preserving Shibam is a humanitarian and cultural responsibility to ensure the continuation of this heritage for future generations.

Keywords: Shibam, Hadhramout, World Heritage, Mud, Traditional Architecture, Floods, Challenges, Restoration